مشينا يملؤنا الفخر والاعتزاز برجال واجهوا مصيرهم المحتوم صابرين محتسبين على أيد عدو ربما كان يوما أخا لكنه باع الضمير في سوق النخاسين، وعانق الغرباء الذين دخلوا خلسة ليسرقوا الوطن والشرف والكبرياء، ويمنحوا الموت والخراب. قلنا لذويه: جئناكم مهنئين لا معزين، وكيف يعزّى من عانق السماء جبينه، وناطح السّحاب هامه؟! ملأ موكب أسره، الذي طاف به في أزقة المدينة المغتصبة من أهلها، وجداننا ألما وأسفا، وخيالنا ترقبا في عينيه اللتين ملأتا الآفاق استنكارا وشجبا. كأن عينيه الحائرتين، اللتين تدوران متفرستين بوجوه المارة الملوّحة بأيديها نحوه بإيماءات الشماتة والحقد، تستقرئ علامات الإفلاس والنكوص والتردي في حضيض البهيمية التي نكص فيها أولئك، وكأن روحه تخاطبهم قائلة: وا أسفاه على تلك المبادئ السامية التي جمعتني بكم يوما وهي تتحول الآن في نفوسكم إلى وقود للحقد، في الوقت الذي أراد منها نبيِّنا جميعا أن تكون ينابيعا للمودة والتراحم. وا أسفاه على مبادئ نبيِّنا جميعا التي علمتنا يوما نحن وإياكم أن نحترم الأسير ولا نجهز على جريح، وأراكم اليوم قد اجتمعتم على أمر يسخط الله و نبيكم ولا ينم عن مروءة العرب وحميتهم. تمرون بي في الأسواق لتشفوا صدروكم المريضة، ولتصنعوا لأنفسكم نصرا وهميا... كم كنت أتمنى لو نزلت ضيفا عند أحدكم لكي لا يشمت أعداء العرب بأن العرب قتل بعضهم بعضا. ثم أدار وجهه نحو ذباحيه وخاطبهم في نفسه قائلا: كم أنا سعيد حين أرى إفلاسكم من كل المبادئ السامية، لقد تيقنت بفضل أفعالكم بأنني على الحق الأبلج وأنكم بباطلكم تعمهون. كنت قلقا على أن تكون كلمة لا إله الا الله في خرقتكم السوداء لها وقع في نفوسكم لكن اطمئناني ازداد حين تأكدت بأنها لم تتجاوز تلك الخرقة السوداء ولم تلج حتى مستوى حناجركم. لأن هذه الكلمة إذا دخلت إلى النفس البشرية حولتها إلى ملاك الرحمة والمودة. تيقنت أيضا بأنني اختزلت مدارس التاريخ وجامعات الحكمة، تلك المؤسسات التربوية والتعليمية التي تستغرق عشرات السنين وربما مئات السنين لكي تحول مفاهيم الفلاسفة والمفكرين وعلماء الإنسانيات إلى مبادئ عمل، كم أفتخر بأني أوجزت ذلك الزمن كله في لحظة موت مشرف ترجم تلك المفاهيم إلى مبادئ عمل عظيم، واختصرت تلك الجهود كلها في لحظة واحدة حين قرر أعدائي وقررت، قرر أعدائي أن يميتوا الحياة وقررت أن أصنع لكم الحياة بموتي، وأن يكون موتي مدرسة

تجسد كل معاني التضحية والكرامة والفداء والإباء وكل مفاهيم الحكمة والفضيلة والقيم الإلهية. أنتم قررتم أن تقتلوا الإنسانية بحياتكم وأنا قررت أن أحييها بموتي، ذلك أن رمزية موتي نص مقدس يقرأ فيه الفلاسفة والمفكرون مختلف صنوف المعاني التي تشحن الإنسانية بضميرها الحي. دعوتموني "صفوي" وأنا لا أدري ما تعني كلمة "صفوي"، لم اسمعها من أمي ولا من أبي، ولا أتذكر أن معلمي قد ذكرها يوما من بين مفرداته الدراسية أو علمني إياها كفضيلة، ولا أتذكر أن أبي علمني أن أكون صفويا، ولم تكن من الكلمات المقدسة التي يعلّمها أصحاب المنابر في أيام رمضان المباركة ولم يذكرها أو يتفاخر بها شعراء عشوراء وقراء العزاء. إنها كلمة مسخ، تسللت كالمرض العضال إلى قلوب سياسيين ورجال دين ومجتمع، فأصيبوا بداء أسمه "صفوي"، من أعراضه الهستيريا، والهذيان خلال نصف غيبوبة، والإنفعال، والصراخ الحاد، والحمق، وهكذا ملأ الهذيان العصابي فضائيات العالم ومواقع التواصل الاجتماعي والصحف كلها تهذي وسط حالة من الهستيريا: صفوي، صفوي، صفوي ..... حتى نسي القوم كلمة رافضي، وأصبحت أقل قدرة على التنفيس، بعد أن فقدت طاقتها المفترضة حين أصبح الخصم يسمي نفسه رافضي ويفتخر، فذابت حدتها، وفقدت قدرتها على الاستثارة وهكذا ستنتهي كلمة "صفوي"، حتى ينتهي قاموس مفردات التحريض على العنف وتبرير القتل والإبادة. أو ربما لأن الخصم رد بكلمة ناصبي وأخذت هذه الكملة تدمغ كلمة رافضي وتقضي على مبرر وجودها، وتخلق هي بدورها مخيالها الاجتماعي الذي يبرر حذف الخصم بنفس القوة والحدة وربما أشد. ولكي تبيدو شعب العراق بررتم قتل أخي السني بكلمة "مرتد" إرضاء لعطشكم الوحشي لدماء أبناء شعبي، لكنكم خانتكم عقولكم حين عجزت عن إدراك سر بقاء العراقي الذي يضرب بجذر في أعماق سحيقة من التاريخ البشري تعجز معها كل قنابل الدنيا وصواريخها أن تبلغ مدى ذلك العمق السحيق، في حين تكفيكم رصاصة صغيرة أن تقتلعكم من أصل الحياة والتاريخ لأنكم لا جذور لكم وشذاذ آفاق وحثالة صحراء طالما أرقكم العملاق العراقي سليل الحضارات الضاربة في القدم التي بنيت على أسسها وأعتابها حضارات الدنيا كلها.

كلمة "صفوي" نعت وصف به سياسيو أهل السنة خصومهم السياسيين الشيعة ثم عمم في زمن الصراع الطائفي على المجتمع الشيعي كله، وسوقت الكلمة في الوسط الاجتماعي الأنباري والفلوجي وعموم الوسط السني في العراق، إلا حالات قليلة. وتحولت الكلمة من سياق العناد السياسي مع الخصوم إلى مبرر للقتل والتنكيل والتمثيل بالجثث! وهذا أمر طبيعي في غياب واضح للشعور الوطني وللثقافة العقلانية وهيمنة خطاب الكراهية الذي تقوده عمائم وطرابيش وأربطة خلت من كل شيء إنساني سوى الحقد وبث الكراهية في الوسط الاجتماعي. ثم بدأت العدوانية تتصاعد وسط ضجيج إعلامي وتحريض ديني ومذهبي داخلي وخارجي، حتى بلغت مستويات من الحقد الأعمى الخطير الذي يهدد نسيج المجتمع العراقي والوطن برمته.

بمرور الوقت وفي هذا الوسط الخانق من التحريض وثقافة الإبادة الجماعية للآخر لم تعد كلمة "صفوي" المقترنة بكلمة "رافضي" مجرد مفهوم يطلق على خصم سياسي أو عدو مؤقت، بل تحولت إلى عالم خيالي له تداعيات بشعة في ذهن حامله، فحين يطلق الشخص الفلوجي أو الأنباري على الشيعي وصف "صفوي" يستثير في ذهنه جملة من السيرورات النفسية السلبية التي ترفع التوتر في داخله إلى مستوى الانفجار الانفعالي، والواقف خلف الحدث يقوده سواء من داخل العراق أو خارجه مبتغاه هو إحداث هذه الاستثارة وهذا الانفجار لأنها الحالة التي تصنع الفعل غير المنضبط الخارج عن الحسابات العقلانية، فيأمن من أكتشاف العلة التي تبطل سحر الاستثارة، ولتكن النتائج ما تكن، فرجل الظل الذي يقود الحدث لا يمهه إلغاء الطرفين وجوديا، إنما يهمه الحفاظ على مصالحه في بلده هو بالذات. ما لم تتداعى تلك الأخيلة المرتبطة بلفظ "صفوي رافضي" لا يمكن أن تحدث الاستثارة والانفجار الانفعالي الذي يعقبلها، وبالتالي لا تحدث الجريمة. ولذلك وسائل الاعلام العربية وبعضها في الداخل تحرض على إحداث الاستثارة عبر تسويق ألفاظ تحريضية، أنظر إلى ما تفعله قناة الجزيرة القطرية من إجرام مقصود بحق الشعب العراقي، إجرام بحق المجتمع السني قبل المجتمع الشيعي، كذلك العربية ويتبعهما قنوات غربية ممولة بأموال خليجية، كلها تساهم في إحداث الاستثارة. وأهمها جميعا قناة الجزيرة فهي مصدر تحريض طائفي لا ينضب، نعم قد يجد فيها السني المعارض إشباعا لرغبته في الانتصار الوهمي، وتعزيزا

لمواقف ذاتية قلقة بحاجة إلى تدعيم خارجي، وتبديدا لقلقه تجاه مستقبل قاتم في ظل الظروف التي تقود فيها البلاد تجربة ديمقراطية يشعر أنها ليست في صالحه، ويتعزز هذا الشعور في ظل عدم الثقة بالآخر، عدم الثقة المتبادل بين الطرفين الذي هو ليس وليد المرحلة الراهنة، إنما هو عدم ثقة تاريخي رسمته أسطر في كتب صفراء كتبت بالسهام لا بالأقلام وفي لحظة تكفير لا في لحظة تأمل و تفكير. واليوم يتم استحضار تلك الكتب ومفاهيمها وألفاظها ويلغى الزمن الراهن لصالح زمن تلك الكتب التي تصف الآخر بالرافضي والزنديق والمنافق والكافر....الخ، ثم أضيف إليها لفظ "صفوي" هو من مبتكرات سياسيي السنة الجدد، وكلها ألفاظ تمهد لعمليات إبادة جماعية متبادلة.

مصطفى الشهيد لا يعلم شيئا عن الأبعاد التاريخية والسياسية للفظ "صفوي" دمغ به من دون إرادة منه ولا وعي حقيقي بأبعاده، لكن الإنسان في بلادنا العربية هكذا يشكلن ويعاد بنائه ويتلاعب به في وسط مجنون لا يحترم إلا التخيلات الجنونية، الوسط الذي يبحث عما يشفي غليله بألفاظ وشتائم وكنى وألقاب، وحين تتوفر الفرصة يفجر غضبه كالحمم البركانية التي تجرف وتحرق كل ما في طريقها سنيا كان أو شيعيا فالفتنة عمياء لا تميز، أنظر كيف تداعت الفتنة الأولى التي بدأت على شكل منصة إلى فتن تحرق أهلها قبل عدوها المفترض، وقد تلاشى أولئك النفر الذين أضرموها، ليحرقوا بها الفقراء وليكن مصطفى الفقير، الذي يعيش في بيت صغير في قطاع من قطاعات مدينة المحرومين، ضحية من ضحاياها مثلما احترق بها الوسط الاجتماعي الذي زعموا أنها أطلقت من أجله وصار ضحية لها. وكأن آذنهم صمت عن قوله تعلى: "واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة". الفتنة لا رابح من ورائها وأول المحترقين بها هم مثيروها، لكن الإنسان الأحمق دائما تفوته الحكمة وبعد أن تقع الكارثة يدرك أنها كان يجب أن لا تقع وأن لا يسمح بوقوعها، ولات ساعة مندم، فسنن التاريخ لا ترحم المغفلين.